البَاب السّابِع

انتشار الإسلام في فارس وأواسط آسيا

إذا أردنا أن نتتبع طريق انتشار الإسلام شرقًا إلى أواسط آسيا، وجب أن نرجع قليلاً إلى عهد الفتوح العربية الأولى؛ فإنه لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادي حتى كانت الأسرة الساسانية العظيمة قد سقطت، ودخلت في حوزة المسلمين، تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، التي ناهضت روما وبيزنطة أربعة قرون. ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية، لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبدادًا امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت. ومما أثار غضب الأهلين وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوي على الكراهة والبغضاء، وزادت شُقة الخلاف بينهم، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة، والتي كانت من قبل بغيضة عند الأهلين، ويفسحون المجال لكهنتها، حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة وصاروا على جانب عظيم من القوة في مجالس الملك، وادعوا أن لهم نصيبًا كبيرًا في إدارة الشئون المدنية[1]، واستغلوا نفوذهم في اضطهاد كل الفرق الدينية المخالفة لهم (وكانت كثيرة).

وإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدي المذاهب الفارسية القديمة، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة، وأحزاب مختلفة تأثرت بتأملات الأدريين Gnostics [†] والبوذيين والمانوية Manichaens. وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذي أحسه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلاد الفرس، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع، كما كان كذلك

---

[1] ذكرت في الأصل غربا.

[†] هي طائفة من النصارى تقول إن المادة قديمة، وإن الشر من طبيعتها، وخلطت بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس.

علة ذلك الانتصار الذي حالف الفتح العربي، وجعله يظهر في صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه[١].

وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب، حبًا في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيًا، ثم أملا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين، ومن زرادشتين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين، على أن يدفعوا للمسلمين الجزية[٢]. ولقد قيل إن النبي نفسه أوصى بالزرادشتيين خيرًا، وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كِفَاء حمايتهم[٣]. وقد يكون هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثًا نبويًا يبيح التسامح الديني في معاملة أهالي الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها، سواء أدخل معتنقو هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا[٤].

وإلى حالة الكنيسة المسيحية في فارس وما سادها من اضطراب وارتباك، يجب أن نذكر تغيير الحكومة الذي خلصها من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلاف المرير بين اليعاقبة والنسطوريين، كما زادوا في فوضى الأحزاب المتحاربة المتنافرة، ولقد أشرنا من قبل[٥] إلى الاضطهادات الدينية الأولى، والآن نذكر أنه حتى في عهد احتضار الأسرة الساسانية، ثارت ثائرة خسرو الثاني، واشتد حنقه من جراء الهزيمة التي أنزلها به الإمبراطور المسيحي هرقل، فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين في داخل حدود مملكته، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيرًا من ألوان العنت والآلام. ولعل هذه الأحوال

---

[١] Cactani, vol, ii, pp. 910-11; A, de Gobineau (1), pp. 55-6.

[٢] أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٣.

[٣] أبو يوسف ص٧٤، والبلاذري ص٧١ (في النهاية)، ٧٩، ٨٠.

[4] Caetani, vol. v. pp. 361 (& 611 n. 1), 394-5, 457/

[٥] ص ٦٨–٦٩.

المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة. ((وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة، فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد. وبعبارة أخرى كان أهالي فارس، والأجناس السامية بوجه خاص، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة. وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سبلًا واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة))[1].

على أن سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، قد رحبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء، وهم الذين كانوا ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، ولما في اعتناقهم الإسلام أيضًا من تركهم في الحال أحرار ومساواتهم في المذهب الديني[2]. ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة، حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله، فوجدوا السبيل سهلًا ميسورًا لتدينهم بالإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيرًا من التعاليم الأساسية في ديانته القديمة، وإن كان ذلك بصورة مختلقة كثيرًا.

وبعبارة أخرى فإنه يصادف بدل اسم أهورمزدا **Ahurmazda** وأهرمان **Ahriman** في ديانته القديمة اسم الله وإبليس في القرآن، كما يجد أيضًا أن الله خلق العالم في ستة أيام،

---

[1] **Caetani, vol ii. P. 910.**
[2] **De Gobineau (2), pp. 306-10.**

ويقرأ عن الملائكة والشياطين، كما يقرأ قصة براءة الإنسان القديم، وبعث الجسد بعد الموت، والاعتقاد بوجود الجنة والنار[1]. بل نجد كثيرًا من وجوه الشبه في تفصيلات العبادة اليومية، وأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتقادهم الإسلام أن يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمى أڤستا Avesta[2].

وكانت هذه القبائل التي تقيم شمالي فارس، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر، بحجة أن كل شخص كان قسيسًا في بيته، وأنه لم يكن به من حاجة إلى واعظ آخر، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح، ولأنه عرف أن الإنسان يجب أن يحب الخير لجاره، وأن يكبح جماح شهواته، ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أحسن حالًا من حياته الحاضرة.

ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الإقناع لحثهم على قبول دين النبي[3]. وهنالك أيضًا كثير من أوجه الشبه بين الدين الإسلامي ومعتقدات بعض فرق الإلحاد في فارس التي أصبحت تحت تأثير المسيحية. وفضلًا عن هذه العوامل التي ذكرناها، والتي كانت سبب انتشار الإسلام بسرعة مدهشة في بلاد الفرس كما رأينا، كان ثمة عامل آخر، هو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي من شاهبانو Shàhbànù إحدى بنات يزدجرت آخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية، وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلي من جهة، كما يفسر لها ظهور التشيع هناك حزبًا منفصلًا من جهة أخرى[4].

---

[1] Dozy (1), p. 157.
[2] Haneberg, p. 5.
[3] Dozy (1), p. 191. A. de Gobineau (1), p. 55.
[4] Les croyances Mazdéennes dans la religion Chiite, par Ahmed- bey Agaeff (Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists, vol. ii. Pp. 509-11. London, 1893).

ولم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام، بدليل هذه المعاملة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم. ولا يزال إلى الآن في بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار[1]. ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرًا من الاضطهادات، كان أسلافهم في القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية، وكانت معابدهم محترمة، حتى إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم ٨٣٣–٨٤٢م) (٢١٨–٢٢٧هـ) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابدهم في بلاد الصغد، واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه[2].

وفي القرن العاشر الميلادي، أي بعد فتح فارس بثلاثة قرون، وجدت معابد النار في العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وأرّان، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبًا[3]. كما لم تخل أية مدينة أو كورة في فارس من المجوس أو معابد النار[4]. وقد ذكر الشهرستاني* أيضًا (حين ألف في عصر متأخر، في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها[5].

وبالنظر إلى هذه الحقائق يكون من المستحيل قطعًا أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام. ومن المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيرًا جدًا للأسباب المختلفة التي ذكرناها. بل إن في بقاء مذهبهم القديم، وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيًا في خلال القرون المتتابعة، يقوى في نفوسنا

والوقوف على بعض هذه العلاقات انظر Goldziher: Islamisme et Parsisme (Revue de l'Histoire des Religions, xliii. p. 1. Sqq).

[1] Dosabhai Framji: History of Parsis, vol. i. pp. 56-9, 62-7. (London, 1884).

ويذكر Nicolas de Khanikoff أنه كان هناك في نهاية القرن الثاني عشر اثنتا عشرة ألف أسرة من عباد النار في كرمان في Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie centrale, p. 193. (Paris, 1861).

[2] Chwolsohn, vol. I, p. 287.

[3] المسعودي: مروج جـ٤ ص٨٦.

[4] الاصطخري ص١١٠، ١١٨، وابن حوقل ص١٨٩–١٩٠.

* ورد في الأصل (ص٢١٠ س٢) Al- Sharastani وليس Al- Shahrastani وهو خطأ مطبعي على ما يظهر.

[5] كتاب الملل والنحل (ed. By Cureton,) part 1. P. 198.

ما ذهبنا إليه من احتمال تدينهم الإسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام.

وحول أواخر القرن الثامن خلع سامان أحد أشراف بلخ دين زرادشت، واعتنق الإسلام لمساعدة أسد بن عبد الله والي خراسان إياه، وسمى ابنه باسم هذا الوالي الذي دخل في حمايته. ومنذ ذلك التحول تسمت أسرة السامانيين (٨٧٤–٩٩٩م) بهذا الاسم. وحول أوائل القرن التاسع، كان كريم بن شهريار أول ملك اعتنق الإسلام من أسرة قابوس. وفي سنة ٨٧٣م تحول إلى الإسلام عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير ناصر الحق أبي مُحَمَّد. وفي القرن التالي، أي حول سنة ٩١٢م دعا الحسن بن علي – الذي ينتسب إلى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر الخزر الجنوبي، أهالي طبرستان وبلاد الديلم، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية – إلى الإسلام. فأجاب دعوته كثير منهم، على حين أصر غيرهم على كفره.

وكان الحسن بن علي هذا على قدر كبير من العلم والذكاء كما كان ملمًا بمبادئ المذاهب الدينية المختلفة[١]. وفي سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣–١٠٠٤م) دان بالإسلام شاعر مشهور من أهالي بلاد الديلم، هو أبو الحسن مهيار الديلمي، وكان من عبدة النار، وذلك بتأثير أستاذه في فن الشعر الذي كان يفوقه في الشهرة وهو الشريف الرضي[٢]. ويحتمل أن يكون جد ابن خرداذبة الجغرافي المشهور قد تحول إلى الإسلام في ذلك الوقت تقريبًا، وذلك بتأثير أحد البرامكة، وكان جده أيضًا من أتباع المذهب المانوي وأحد كبار كهنة عبادة النار في معبد نوبهار العظيم بمدينة بلخ[٣].

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول الناس إلى الإسلام، يظهر أن انتحالهم هذا الدين كان بمحض إرادتهم، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي، حتى إذا جاء الغزو المغولي بدأ

---

[١] المسعودي جـ٨ ص٢٧٩، جـ٩ ص٤–٥.

[٢] ابن خلكان جـ٣ ص٥١٧.

[٣] كتاب الفرست (طبعة فلوجل) ص١٤٩ س٢.

في تاريخهم عصر أكثر إظلامًا من العصر الذي سبقه. ويبدو أن ألوان البؤس التي لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت في نفوسهم روح التعصب الديني وعرّضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التي تنطوي على القسوة والإرهاق[1].

وقد بدأت في فارس حول أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حركة تثير الاهتمام في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي ظهور طائفة الإسماعيلية. ولسنا هنا بصدد بحث تاريخ هذه الطائفة، ولا في المكانة الدينية التي شغلها أتباع هذه الطائفة، ولا في العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت على ظهورها بمظهر القوة، وإنما الذي يسترعي اهتمامنا حقًا هو ذلك النظام المدهش الذي اتبع في نشر الدعوة لذلك المذهب. وكان عبد الله بن ميمون هو الذي بعث في أوائل القرن التاسع الميلادي روحًا جديدة في نفوس الإسماعيلية ونشر تعاليم مذهبهم، الذي يفوق نظام مذهب الجزويت Jesuits من حيث دقة النظر في الطبيعة الإنسانية والمهارة التامة في تلقين مبادئ هذا المذهب للناس، كل على حسب قدرته وميوله. وقد أنفذ عبد الله بن ميمون دعاته في كل الجهات متنكرين في زي الصوفيين غالبًا، أو في زي التجار وغير ذلك. وقد مرنوا على أن يستحوذوا على عقول الناس جميعًا، وأن يجذبوا جميع الطبقات إلى رئيس الدعوة الإسماعيلية، وأن يستخدموا تعاليمهم عن طريق التفاهم مع كل فرد بلغته الخاصة وعلى مقدار عقله. وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يأسروا العامة بما كانوا يقومون به من الأعمال الخارقة للمألوف التي كانت في أعينهم كمعجزات، والتي كانت تثير في نفوسهم حب الاستطلاع.

وكانوا يتظاهرون للأتقياء بالتقوى والتحمس الديني، ويظهرون للزهاد المثل الأعلى للفضيلة والحماس الديني، ويجلون للصوفيين ما غمض عليهم من التعاليم المعروفة، ويستخدمون مع من يريدون إدخاله في مذهبهم مراتب مختلفة تتناسب مع عقولهم، ومن ثم أخذ هؤلاء وأولئك يوحون إلى المتشوقين بظهور منقذ يصلح الأديان الكثيرة السائدة في ذلك الحين، فأعلنوا للمسلمين قرب ظهور المهدي المنتظر، ولليهود ظهور المسيح، وللنصارى

[1] الوقوف على مجمل حالتهم تحت حكم المسلمين، انظر:
De Menant: Les Zoroastriens de Perse (R. de M. M. iii. Pp. 193 sqq., p. 421 sqq).

المعزي. يبد أنهم لقنوهم أن ما يطمح إليه كل فرد لا يمكن أن يتحقق إلا برجعة عليّ المنقذ الأكبر.

وكان على الداعي الإسماعيلي أن يظهر بمظهر المتحمس لجميع العقائد الشيعية، ويثير قسوة السنيين وظلمهم لعلي وأولاده، ويجاهر بالحط من شأن الخلفاء السنيين. فإذا ما مهد السبيل على هذا النحو، وجب عليه أن ينتقل على وفق ما تتطلبه دقة المذاهب الشيعية إلى مبادئ الطائفة الإسماعيلية العميقة في التأويل. وإذا ما خاطب اليهودي أظهر احتقاره للنصارى والمسلمين، ووافق المدعو في تطلعه إلى قرب ظهور المسيح المنتظر، ولكنه يتدرج معه في الحديث حتى يعتقد أن بهذا المسيح لا يمكن أن يكون سوى علي بن أبي طالب، وهو المهدي الأكبر عند طائفة الإسماعيلية*.

وإذا حاول جذب المسيحي وجب أن ينحو باللائمة على مكابرة اليهود وجهل المسلمين، وأن يعلن احترامه لما جاء به الدين المسيحي من عقائد، ولكنه يشير في شيء من الحذر إلى أن هذه العقائد عبارة عن رموز وأنها ذات معان عميقة لا يجد المرء وسيلة للوصول إليها إلا عن طريق المذهب الإسماعيلي، كما يجب عليه أيضًا أن يشير في حذر وحرص إلى أن المسيحيين قد أساءوا نوعًا تأويل نظرية المسيح المنتظر (الفرقليط) Paraclete، وأن هذا المسيح المنتظر لا يوجد إلا في شخص علي بن أبي طالب. وعلى هذا النحو حاول دعاة الإسماعيلية الذين اتخذوا طريقهم إلى بلاد الهند أن يحملوا الهندوكيين على قبول عقائدهم عن طريق إظهار علي بن أبي طالب بمظهر أوتار وشنو* العاشر المنتظر The Promised tenth Avatar of Visnu، الذي يجب أن يأتي من ناحية الغرب، أي من الموت Alamùt. وكذلك كتبوا عن مهدي پرانا Puràna** ونظموا الأشعار في تقليد الواماكارين Vàmàcàrins أو الساكتس Sàktas ذوي الأيدي اليسرى

* إن هذا لا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلي الذي يقول بأمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وقرب ظهور أحد أبنائه. وإلا لما استطعنا أن نفرق بين الإسماعيلية الذين يعتقدون إمامة إسماعيل وأبنائه وبين الاثنا عشرية الذين يعتقدون إمامة موسى الكاظم وأبنائه، والزيدية وغيرهم من فرق الشيعة التي تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب. أما النصيرية فإنهم يؤلهون علي بن أبي طالب.

* كلمة سنسكريتية الأصل معناها الشخص الذي جاء إلهًا لخلق الكائنات.

** مهدي پرانا أي التفسير الذي كتبه المهدي.

الذين كانت حياة الزهد التي عاشوها قد هيأت عقولهم لقبول مذهب الإسماعيلية الباطني أو التأويلي[١].

وبأمثال هذه الطرق اتحد عدد هائل ممن يدينون بأديان مختلفة في القيام بمشروع لم يعرف حقيقة ما يرمي إليه إلا القليل الأقل من الناس. ويظهر أن مطامح عبد الله بن ميمون كانت سياسية محضة، ولكن الوسائل التي تذرع بها لتحقيق هذه المطامح كانت دينية، ومن ثم جمع الناس تحت لواء واحد وجعلهم ينتظرون قرب ظهور الإمام المهدي. وإن نشاط الدعوة وارتباطه بتاريخ هذا الحزب خليق بأن نتصدى لذكره بإيجاز هذه الصفحات[٢].

وإن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد أواسط آسيا إلى شمال فارس لا يدل إلا على قليل من نشاط الدعوة الإسلامية. فإنه لما وفد قتيبة بن مسلم علي سمرقند، وجد هناك كثيرًا من الأصنام كان عبدتها يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرّض للموت. على أن الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام. وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس[٣].

على أن المعلومات التي وصلت إلينا – مع قلتها – تدل على أن التحول إلى الإسلام كان، برغم هذا، ضئيلًا في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية في أواسط آسيا. وفوق هذا يبدو لنا أن أهالي هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الإسلام إلى حين، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح[٤]. ولم يصب العرب النجاح المطلوب في إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة.

---

[1] **Khoja Vrittànt, pp. 141-8.**

ولزيادة الإيضاح عن دعاة الإسماعيليين في الهند، انظر الباب التاسع.

[2] **Le Bon Silvestre de Sacy: Exposé de la Religion des Druzes, tome i. pp. Lxvii, cxlviii- clxii.**

[٣] البلاذري ص٤٢١.

[٤] الترشخي ص٤٦.

وفي بخارى وسمرقند اتسمت مقاومة الأهلين للإسلام بكثير من ضروب العنف والعناد، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين. ولم يجرأ المسلمون أعوامًا طويلة على أن يظهروا في المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح، على حين لم يكن بد من أن تُقام الجواسيس لمراقبة الحديثي العهد بالإسلام. وكذلك بذل الفاتحون جهودًا مختلفة لإدخال الناس في حظيرة الدين، بل لقد حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلًا من العربية حتى يستطيعوا جميعًا فهمه في سهولة ويسر[١].

وكان انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر بطيئًا بطئًا ظاهرًا. فقد استجاب بعض الأهلين إلى دعوة عمر الثاني (٧١٧–٧٢٠) للمتدين بالإسلام[٢]، وتحول عدد كبير منهم على يد أبي صَيْدا الذي أخذ في نشر هذه الدعوة بسمرقند في عهد هشام الثاني (٧٢٤–٧٤٣م)[٣]. ولكن جمهور أهالي هذه البلاد لم يعتنقوا الإسلام حتى عهد المعتصم (٨٣٣–٨٤٢م). وربما كانت هذه العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة إذ ذاك بين بغداد حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر، والأتراك الذين كانوا قد هاجروا أفواجًا لينضموا إلى جند الخليفة من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام[٤].

ويظهر أن الإسلام، وقد رسخت قدمه بين القبائل التركية على هذا النحو، لم ينتشر إلا ببطء حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، حين دان به بعض رؤساء عشائرهم، كما حدث تمامًا في تاريخ الدين المسيحي عندما تحول كلوفيس Clovis وبعض ملوك شمالي أوروبا من المتبربرين إلى المسيحية، واقتفى أثرهم في ذلك عدد كبير من القبائل التي ينتمون إليها.

---

[١] المصدر نفسه ص٤٧.

[٢] البلاذري ص٤٢٦.

[٣] الطبري ٢: ١٥٠٧ وما يليها.

[4] August Müller, vol. i. p. 520. Cahun, p. 150.

ابن الأثير جـ٨ ص٣٩٦ (س١٩–٢٠)، Grenard, pp. 7sq., 42-3.

وقد ظهرت في ذلك الوقت قصص دينية خرافية حلت محل الحقائق التاريخية الجدية، وذلك بصدد تحول الناس إلى الإسلام، فمدينة خيوة مثلًا كانت تقدس مصارعًا وطنيًا يطلقون عليه اسم بهلوان **Pahlavàn**. وكان هذا المصارع في خدمة أحد ملوك خوارزم الوثنيين. ولما سمع ملوك الهند بشهرة بهلوان هذا، أرسل أحد المصارعين في بلاطه يستفز ملك خوارزم لتحديد يوم للمبارزة. وقد حدد يوم لاختبار قوة هذين الرجلين، ودعى عدد كبير من النبلاء والعامة في خيوة لمشاهدة هذا المنظر، وخاصة إذا علمنا أن من غُلِب في هذه المصارعة كان حقه أن يُطاح رأسه.

وفي اليوم الذي سبق يوم المصارعة، عندما كان بهلوان المقدّس يصلي في الجامع، سمع امرأة عجوزًا تدعو الله وتقول: «رب لا تلحق بولدي الهزيمة في مصارعة بهلوان فإنه ليس لي ولد سواه». فأخذت الشفقة بهلوان ورق لحال هذه الأم، وسهل لمصارعة الهندي إحراز الفوز عليه. وأمر الملك بقطع رأسه، وقد ثارت ثائرته وأخذ الغضب منه كل مأخذ. غير أنه في هذه اللحظة نفسها أخذ الحصان الذي كان الملك معتليًا صهوته يعدو مسرعًا صوب منحدر خطير، ولحق به بهلوان وأمسك بزمام الحصان، وأنقذ حياة الملك من موت مروع. ولم يكن من الملك إلا أن بادر إلى التدين بهذا الدين الحق شكرًا لله واعترافًا بآلائه عليه، وذهب المصارع المقدس في طريق الصحراء، وقد ملأ الفرح قلبه، وأوى إلى صومعته، وعاش عيشة النسك والزهد، وانقطع إلى العبادة.

وحول منتصف القرن العاشر الميلادي، رويت أسطورة عجيبة عن إسلام ساتوق بغراخان **Satùq Bughrá Khán** مؤسس أسرة إيلكخان الإسلامية في كشغر. فقد أراد خواجًا أبو النصر الساماني أحد أمراء الساسانيين، وكان على جانب عظيم من التقوى ودماثة الخلق، أن يجد مجالًا لإشباع مواهبه الإدارية، فعزم على اتخاذ التجارة حرفة له، مدفوعًا في ذلك برغبته في نشر الدين الحق في بلاد الكفار. وبدلًا من محاولة جمع الثروة عن طريق مشروعاته التجارية، خصص ساتوق كل أرباحه لتنمية جهوده في إدخال الناس في دينه الجديد؛ ففي ذات ليلة ظهر له النبي في المنام وقال له: «استيقظ واذهب إلى تركستان حيث تجد الأمير ساتوق بخارى خان في انتظار حضورك للدخول في الإسلام».

ورأى هذا الأمير الشاب في نومه رؤيا مماثلة تحثه على انتظار شخص يدعوه إلى الدين، ولما تقابل ساتوق مع أبي النصر السامانى بعد عدة أيام، كان ساتوق على استعداد تام لقبول تعاليمه والتدين بالإسلام. ويظهر أن هذه الأسطورة استندت إلى هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن الإسلام امتد من بلاد السامانيين إلى البلاد المجاورة في تركستان، وأن رعايا هذا الحاكم اقتفوا أثره في التدين بالإسلام، إذ أنه في سنة ٩٦٠م اعتنق هذا الدين مائتا ألف من الأسر التركية التي كانت تعيش في الخام، والتي لا يبعد أنها كانت تكون الجزء الأعظم من أتراك تركستان بمملكة بخارى خان.

وتعزو إليه الأساطير القدرة السحرية في الحروب التي شنها على الكفار، حتى لقد روي أن شعلة محرقة تخرج من فيه، وأن سيفه الذي كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدمًا. وقد قيل إن ساتوق لم يكد يبلغ التاسعة والستين من عمره، حتى نشر سيفه الرعب في قلوب الكفار الذين كانوا يقيمون في الأراضي الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبًا إلى قُسَره قُورَم شمالًا، فتحولوا إلى الإسلام. كما قيل إن جيوشه المنتصرة دخلت قبيل موته بلاد الصين، ونشرت الإسلام حتى ترفان Turfan[١]. وإن هذا الوصف الرائع لكفاح هذه السيرة مع مملكة خُتان البوذية ليخلع على بطلها حلة من النجاح الذي لم يتم في الواقع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي. ويمكن الحكم على مدى ما بلغه ساتوق بغراخان من نجاح من أن خلفاءه من أسرة إيلسكخان أرادوا في سنة ١٠٢٦م الزواج من أميرات بيت محمود الغزنوي، فأجابهم محمود بأنه مسلم على حين أنهم كفار، وأنه ليس من عادات المسلمين أن يزوجوا أخواتهم وبناتهم من الكفار، ولكنهم إذا دخلوا في الإسلام أمكن النظر في هذه المسألة[٢].

---

(1) Grenard, pp. 9-10.

ومن حرب الطموح هذه، جعلت منها هذه الرواية حربًا مقدسة؛ وتنسب الرواية إلى سازق بغراخان الفتح الذي تم في الواقع على يد خليفته الثاني عشر. ومن الخطأ البين أن تطلق هذه الرواية اسم الأخير على عم ساتوق بغراخان الذي كان لا يزال على وثنيته. ومما يؤسف له أن هذه الرواية تحل من شخصين اثنين شخصًا واحدًا فتعزو إلى نفس هذا الأمير الإغارة على تورفان أي ضد بلاد الغور، وهذه الإغارة تنسب حقًّا إلى شخص ثالث (المصدر نفسه ص٥٠).

(2) Reverty, pp. 905.

وبعد ذلك بسنين قليلة، أي بين سنتي ١٠٤١، ١٠٤٢، طلب بعض الأتراك الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم، والذين كانوا يعيشون في هضبة التبث من أرسلان خان بن قَدْر خان أن يسمح لهم بالاستقرار في ممتلكاته، لما سمعوا عن عدله وسعة صدره ولين حكمه. ولكنهم لما أصبحوا على مقربة من بالاساغون[١]، أرسل إليهم كتابًا يدعوهم فيه إلى الإسلام، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة، فتركهم وشأنهم لما آنسه فيهم من روح المسالمة والطاعة. وليس لدينا معلومات عن كيفية اعتناقهم الإسلام، على أنه يرجح أن هذا قد تم على مر الزمن، ولكنه ليس من اليسير أن نثبت أن هؤلاء هم أفراد هذه الجماعة التي كانت تتألف من عشرة آلاف أسرة تركية من الكفار اعتنقت الإسلام في السنة التالية. إذ أنه قد أثر عن هؤلاء الأخيرين أنهم أغاروا على المسلمين ونهبوهم قبل تحولهم إلى هذا الدين[٢]. وكانت غزوة قره ختاي Qarà khitày في بلاد التركستان سببًا في تصويب ضربة عنيفة إلى قوة الإسلام. وكانت تقارير الرحالين الأوروبيين حتى القرن الثالث عشر الميلادي توضح أنه كان ثمة طوائف من البوذيين والمانويين والمسيحيين في هذه الجهات[٣].

وكان لدخول الأتراك السلجوقيين في الإسلام أهمية عظيمة، وليس لدينا أي نص نستدل منه على تحولهم إلى الإسلام؛ إلا أنه في سنة ٩٥٦م هاجر سلجوق مع قبيلته من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو وأتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له[٤]. وهذا هو أصل الأتراك السلجوقيين المشهورين الذين أحيوا بانتصاراتهم وفتوحهم مجد الجيوش الإسلامية بعد أن خبا، ووحدوا الممالك الإسلامية في غرب آسيا في إمبراطورية واحدة.

إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فقدت الدولة السلجوقية كل قوتها، اللهم إلا إذا استثنينا آسيا الصغرى. وعندما كان مُحَمَّد الغوري يوسع رقعة إمبراطوريته من

---

[١] كانت حاضرة تركستان في خلال القرنين العاشر والحادي عشر، ولكن موقعها الأصلي غير واضح.

[٢] الترشحي ص٢٣٤-٢٣٥.

[3] Grenard, p. 76.

[4] Raverty, p. 117.

خراسان شرقا حتى شمالًا بلاد الهند، انتعشت حركة انتشار الإسلام بين الأفغان، وجاس خلال ديارهم دعاة من العرب والهنود الذين تحولوا إلى الإسلام وقاموا بحركة نشر تعاليم هذا الدين في حماسة وجرأة وظاهرة[١]. وتدل الأقاصيص على أن الإسلام قد دخل بلاد الأفغان دون أن يلجأ المسلمون في سبيل ذلك إلى شيء من القوة أو العنف. فقد قيل إن العرب احتلوا في القرن الأول الهجري بلاد الغور إلى هراة شرقًا، وأن خالد بن الوليد ذهب إلى هناك حاملًا أنباء الدين الإسلامي، ودعا أهل هذه البلاد إلى الانضواء تحت لواء النبي، ثم عاد إليه بصحبة وفد مؤلف من ستة أو سبعة يمثلون الأفغان. ولما عاد هؤلاء إلى بلادهم أخذوا يدخلون أفراد قبائلهم في الدين[٢].

على أن هذه القصة خالية من أي أساس تاريخي، وإن ما وصل إلينا عن اعتناق بعض الأفغان الإسلام لا يعدو ذلك النص الخاص بانتحال ملك كابل في عهد الخليفة المأمون[٣]. ويظهر كذلك أن خلفاء هذا الملك ارتدوا إلى البوذية، إذ أن يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصّفارية لما مد فتوحه إلى كابل في سنة ٨٧١م، وجد حاكم هذه البلاد وثنيًا. وأصبحت كابل منذ ذلك الوقت بلدًا إسلاميًا خالصًا لأول مرة، كما لا يبعد أن يكون الأفغان قد أصبحوا بحيث يرحبون الترحيب كله للعمل في جيش فاتح جريء كجيش يعقوب بن الليث[٤].

على أنه لم تكد تنتهي فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوي، حتى كان الإسلام قد تمكّن وتوطد في كافة أرجاء بلاد الأفغان.

وسيجد القارئ في الباب التالي تفاصيل أخرى عن تاريخ انتشار الإسلام في فارس وأوساط آسيا.

---

(1) Bellew, p. 96.

(٢) المصدر نفسه ص١٥-١٦.

(٣) البلاذري ص٤٠٢.

(4) August Müller, vol. ii. P. 29.